## الباب الثالث

# أدب العلم

شرف الانسان ـ فضل العلم ـ فضل التعليم والتعلم ـ العلم في الصغر ـ تفاضل العلوم ـ ابتداء أمر العلم في الاسلام ـ العلوم التي إشتغل بها المسلمون ـ المقدار اللازم من العلم الذى هو فرض عين ـ أدب التوحيد ـ الفقه ـ علم التفسير ـ علم الادب ـ العلوم الآلية ـ ما يلزمنا الآن معاشر المسلمين بالنظر الى الجمهور

يمتاز الانسان عن الحيوان الاعجم بقوة العقل والفكر والنطق وهذه الميزة والكرامة من الخالق جل شأنه للانسان جعلته أهلا للخلافة أى السيادة على الارض يستعمرها ويسود عليها ويستخدم مواليدها وقواها الطبيعية في شؤونه بالعمل والكدح ولذلك كان من أهم واجباته أن يستزيد مما يقويه ويسهل عليه مهمته هذه ولا شيء ينيله ذلك غير العلم والمعرفة ولهذا جاء الدين الاسلامي حاثاً على العلم آمراً به موجباً له كفرض عين على كل مسلم في أمرى الدين والدنيا حتى يعلم الانسان المفروض عليه في اعتقاداته وعباداته وأمر معاشه في الهيئة وأدب الاجتماع البشرى واصلاح هذه الدنيا التي ينتفع

بها واتقان ذلك كله بالعلم والمعرفة وفي هذا منتهى الشرف والرفعة لنوع الانسان وتفاضله من أجلها بعضه على بعض وكتاب الله تعالى ناطق بفضل العلم والعلماء « قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون » « انما يخشى الله من عباده العلماء » وقال صلى الله عليه وسلم « فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب » وقال عليه الصلاة والسلام « الايمان عريان ولباسه التقوى وزينته الحياء وثمرته العلم » وقال أيضاً « اذا أتى علىّ يوم لا ازداد فيه علماً يقربني من الله عز وجل فلا بورك لي في طلوع شمس ذلك اليوم » وقال عليه الصلاة والسلام ( العلماء ورثة الانبياء ) وفي حديث آخر ( من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين ويلهمه رشده )

وقال الامام علي رضي الله تعالى عنه لكميل ( يا كميل العلم خير من المال العلم يحرسك وانت تحرس المال والعلم حاكم والمال محكوم عليه ، والمال تنقصه النفقة والعلم يزكو على الانفاق ) وقال الزهري ( ما عبد الله بشيء أفضل من العلم )

هذا قليل من كثير مما قيل في فضل العلم على الاطلاق وما قيل عند أهل الاسلام في فضل التعلم والتعليم بالتبعية لذلك

كثير ايضاً قال تعالى ( ومن أحسن قولاً ممن دعا الى الله وعمل صالحاً ) ولا شك ان الدعوة الى الله تعالى لا وسيلة لها الا بالعلم والتعليم اللذين ثمرتهما العمل ولقد حث القرآن المجيد على نشر العلم وطلبه قال تعالى ( فلولا نفر من كل فرقة نفر ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم اذا رجعوا اليهم لعلهم يحذرون ) وقال تعالى ( وإذ أخذ الله من النبيين ميثاقهم لتبيننه للناس ولا تكتمونه ) أراد به الله تعالى نشر العلم أو ما هو من أخصه معرفة الله تعالى وشرائعه

( وقال تعالى أدع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة )

وما الحكمة والموعظة الحسنة الا العلم الشامل الجامع لخيري الدنيا والدين كالذي يطلب اليوم وينشد من ( جامعات العلوم ) و ( كليات المدارس ) وفي هذا منتهى الفخر والسؤدد الذي جاء للترغيب في الاستزادة منه قوله تعالى ( قل رب زدني علماً ) وجاء في الحث على طلب العلم ( طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة ) وفي حديث آخر ( اطلب العلم ولو بالصين ) وفي حديث ( طلب العلم أفضل عند الله من الصلاة

والصيام والحج والجهاد في سبيل الله عز وجل ) وفي حديث ( أفضل الصدقة أن يتعلم المرء المسلم علماً ثم يعلمه أخاه المسلم) وهناك حديث آخر دال على فضل العلم وطلبه ( ان الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم )

والآثار في الباب باب مدح العلم والتعلم كثيرة لا يكاد يحصيها مثل هذا المختصر ولقد شبه بعض العلماء حاجة الانسان الى العلم بحاجة المريض الى الدواء فالعلم ضروري للنفس والتعلم واجب على المرء ولقد قال الامام علي كرم الله وجهه ( ليس الخير ان يكثر مالك وولدك ولكن الخير ان يكثر علمك ) وسئل ابن شهاب أفضل العلم أم العمل فقال ( العلم لمن جهل والعمل لمن علم ) وقال الشافعي رضي الله عنه (طلب العلم افضل من صلاة النافلة )

وأفضل العلم ما لقن في الصغر لانه يكون كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ( العلم في الصغر كالنقش في الحجر ) وقال عليه الصلاة والسلام في الترغيب في تعليم الاطفال ( ما نحل والد ولده نحلة أفضل من أدب حسن يفيده إياه او جهل قبيح يكفه عنه ويمنعه منه ) وقيل ( من أدب ولده فقد

ارغم صدده ومن لم يجلس في الصغر حيث يكره لم يجلس في الكبر حيث يحب ) لكن اذا كانت هذه الدنيا من المهد الى اللحد دار عمل وكدح وتجربة وتعلم لذلك لم يكن لامرئ بد من الاستزادة فيها من العلم والنور وقد مرّ بك قوله تعالى ( وقل رب زدني علماً ) والحديث الشريف ( اذا أتى عليّ يوم لا أزداد فيه علماً فلا بورك لي في طلوع شمس ذلك اليوم ) مع ان مقامه صلى الله عليه وسلم أرفع من ان يحتاج فيه الى التعليم الدنيوي وانما مثاله للتشريع كمثل ما جاء مثله للتشريع للامة وتعليمها وارشادها حتى لا يقصد بالكبير والعظيم همتها دون الاستفادة والاستزادة من علم ينفع وحكمة تلتقط وعمل جليل يختار ، ولقد سأل بعض الناس عالماً عظيما من السلف الصالح ( أيحسن بي أن أتعلم وأنا كبير ـ فقال له ذلك العالم على الفور ـ اذا كان يحسن بك أن تعيش فانه يحسن بك أن تتعلم ) وكان عطاء يقول وهو في التسعين من سنيه ( وددت لو اني أحسن العربية )

فالعلم والعمل به هو السعادة الابدية لانه وسيلتها العظمى ونقطة ارتكازها الكبرى في الدنيا والآخرة بل هو مطية

السعادة الذاتية ومنتهى لذة الحياة وتقدمها ولقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في حديث شريف ( من طلب الدنيا فعليه بالعلم ومن طلب الآخرة فعليه بالعلم ) وقال في حديث آخر ( إنما العلم بالتعلم وإنما الحلم بالتحلم من يطلب الخير يؤته ومن يتق الشر يوقه ) ولا شر شر من الجهل (١)

***

والعلوم البشرية تتفاضل بحسب الفوائد التي تحصل منها والثمار التي تجنى وزيادة النفع بالنسبة الى الظروف المحدقة والمقتضيات الزمانية غير ان ما كان على العموم من العلوم والمعارف أمس بأحوال الناس الاجتماعية وألصق بأمورهم النفعية كالشرائع والآداب ونحوها عد أشد وجوباً من غيره في التعليم ثم يأتي بعده الامثل فالامثل من العلوم والمعارف البشرية مرتبة بحسب مراتبها النفعية كالطب لحفظ صحة الابدان وكالحساب والهندسة للزومهما في قيام المصالح وعمارة هذا العالم ثم العلوم الكونية الطبيعية لمعرفة مافي الكون من عجائب وغرائب وقوى واسرار ومنافع ناهيك بأن فيها وفي

(١) الاحياء والجامع الصغير وغيرهما

نواميسها الدقيقة المحكمة النظام والترتيب اجل براهين وجود الصانع تعالى وبديع حكمته

ولقد جعلت الشريعة الاسلامية العلوم والمعارف درجات بعضها فوق بعض فكان منها بمقتضى هذا الترتيب ما تعلمه في نظر الشريعة ( فرض عين ) كالعقائد والشرائع التعبدية وبعض التعاملية والآداب النفسانية ومنها ما هو ( فرض كفاية ) اذا قام به البعض سقط عن الآخرين كالهندسة وكالطب الى اشباه ذلك فترى من هذا ان الدين الاسلامي قد أحكم الاختيار في تحري العلوم بالنظر الى مصالح البشر الصحيحة مما يعتني به وينشده علماء العصر في تبسيط أمهات الشرائع والآداب العملية الى اشباه ذلك لانهم يرونها كما رأيتها من قبل مبادئنا الاسلامية من لوازم البشر في اجتماعاتهم وحاجتهم الى العلوم بحسب تفاوتها في درجة نفعها ولزومها لسير العمران من أصول الآداب الاجتماعية والشرائع ثم وسائل ذلك من أصول المعارف الاخري الضرورية ثم تخصيص العلوم العالية والتعمقات الفنية بفئآت مخصوصة كالتي هي في حكم الفرض الكفائي في شريعتنا الاسلامية

ولما كان المسلمون قلالا ولأول عهدهم بالحضارة الاسلامية كان تحصيل العلم بينهم قاصراً على فهم امور الشريعة وآي القرآن واستنباط الاحكام منها ومن السنة بالتلقين والرواية والحفظ دون اهتمام بتدوين علومها في الاسفار والكتب ولكن لم يلبث الحال طويلا على ذلك حتى غيروا تلك الحال بأرقى منها فكثر تعلم الخط العربي بينهم ودوّنت من ثمّ الكتب والاسفار الجليلة في سائر العلوم وصار تعليم العلم صناعة من الصناعات تكثر وتقل بحسب الظروف المحدقة بالهيئة الاسلامية في تقلباتها المختلفة

واكثر اصول العلوم التي يشتغل بها المتأخرون قد أولاها المسلمون من قبل عنايتهم واشتغلوا بها بقدر طاقتهم ومبلغ ما اقتضته تقدمات عصورهم ورقي أزمنتهم وسعة معارفهم ولكل أيام دولة ورجال وحال من الرقي يناسب الحال .

أما العلوم الفقهية فقد وفوها حقها بما لا مزيد عليه لمستزيد اصولا وفروعا بالنظر الى ما ناسب وقائع زمانهم وظواهر حوادثه وكذا العلوم الكلامية من العقائد والآلهيات ثم علم التفسير تفسير القرآن المجيد وعلوم الحديث حديث رسول الله صلى الله

عليه وسلم ثم علم الاخلاق وآداب النفوس والسلوك على طريقة الصوفيه أو على طريقة الفلاسفة اليونانيين ثم علوم اللغة العربية من النحو والصرف والمعاني والبديع والبيان واللغة والشعر وأدواته ثم المنطق والفلسفة والجدل ثم الطبيعيات والرياضيات والطب والفلك او الهيئة مما يدلنا على ان قومنا وسلفنا الصالح الاول لم يفتهم شيء مما يشتغل به أهل الغرب اليوم من العلوم والمعارف الا بمقدار ما توسع فيه أبناء العصور المتأخرة بمقتضى ناموس الارتقاء في الاساليب والاكتشافات والاختراعات التي انبنى عليها نسخ كثير من آراء المتقدمين واقوالهم لا في الاصول الحقة الثابتة ولكن في الآراء الطارئة بحسب تلك المكتشفات في العلوم الطبيعية خصوصاً .

وحيث اني هنا بصدد بيان أدب الاسلام وبعبارة اخرى بصدد ما بني عليه من الاصول الحقة والامور العامة الداخلة في الادب الاجتماعي الانساني والتمدن البشري وبيان ما اشتغل به المسلمون قديماً وما تأدبوا به او ترقوا بتحصيله من فروع العلوم البشرية اللازمة وفاق ما رأوه في ترتيبها وأهميتها من الوجهة النفسية والمكانة العملية بحسب أحوال الهيئة الاجتماعية

الاسلامية في تلكم العصور الماضية خصوصاً فلنكتف اذن بسرد بيان أهم فروع تلك العلوم التي اشتغل بها المسلمون مبتدئين بالعلوم الخصيصة منها بالالصاق بالدين فأقول .

الاول التوحيد — اختلف علماء الملة قديماً في بيان العلم الذي هو فرض عين على كل مسلم بالغ عاقل فقال الفقهاء هو الفقه المبين للشرائع المبينة للحلال والحرام وسائر المعاملات، وقال أهل التفسير وأهل الحديث هو علم الكتاب وعلم السنة إذ بهما يتوصل الى العلوم كلها ، وقال المتصوفة والاخلاقيون هو علم العبد بحاله ومقامه من الله تعالى والاخلاص له وآفات النفوس وتزكيتها من الارجاس والرذائل ، وقال العالم أبو طالب المكي هو العلم بما تضمنه حديث بني الاسلام على خمس شهادة ان لا اله الا الله الى آخره وهذا الذي اختاره اكثر أجلة المتكلمين فيكون من أدب الاسلام ان أول ما يجب معرفته من الفروض العينية « التوحيد » ثم « الفقه » وهذا وذاك يقتضي النظر في كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم فوجب « التفسير » ووجب « الحديث » واذ كان كل هذا فيما ظهر من أفعال العباد والمقصود بها جميعاً تزكية الباطن

مع الله تعالى ذلك الذي جاء فيه الحديث الشريف « من أحسن فيما بينه وبين الله كفاه الله ما بينه وبين الناس ومن أصلح سريرته أصلح الله علانيته » فمن ثمّ لزم الوقوف على آداب النفوس والعمل على تزكيتها لتنال السعادة الحقيقية ونحن اذا نظرنا الى باقي العلوم الشرعية وما بني عليها من العلوم الآلية التي جعلت كالوسيلة اليها وجدنا انها كلها متسلسلة الحلقات مفتقر بعضها الى بعض في أدب الاسلام بالمقدار المناسب للكافة في صلاح احوالهم وبالقدر الواجب للخاصة من أربابها في صناعاتها وهذا بينه ما نراه في احوال المتأخرين فيما رأوه ضروريا من انواع العلوم والمعارف فالشرائع والآداب والمعارف الضرورية لاستصلاح احوال العالم لابد من ان يلم أبناء الهيئة كلهم بالمبادئ الاولية الضرورية منها من الوجهة العملية خصوصاً على مثال ما نراه في التربية العصرية عند المتأخرين فيما يحتاجون اليه من العلوم والمعارف النافعة في التربية العمومية أما التعمق والتبحر في الاصول والفروع منها فيختص بأرباب الفن القائمين به والذين هم قادة وهداة لغيرهم فيه

***

لقد تقدم في اول هذا الكتاب في باب « أدب الاعتقادات » جملة مما فيه الكفاية من الوجهة العملية والنظرية في « التوحيد » فيما يتعلق بعقيدته اسلامياً أما تعلمه والتأدب به عند الكافة من المسلمين كعلم يجب تعلمه لانه فرض عين على كل مكلف فينحصر في معرفة العقائد الدينية واجبها وجائزها ومستحيلها بحق الذات العلية ذات الله تعالى القدسية ثم ما يتبع ذلك من العقائد وحكمه كما ترى الوجوب العيني على كل مكلف من ذكر وانثى واولها معرفة الصفات العشرين الواجب اعتقادها بحق الله تعالى وهي (١)

الوجود ، القدم ، البقاء ، مخالفة الحوادث ، قيامه تعالى بنفسه ، الوحدانية ، القدرة ، الارادة المتعلقتان بجميع الممكنات العلم المتعلق بالجائز والمستحيل ، الحياة ، السمع ، البصر المتعلقان بجميع الموجودات ، الكلام الذي ليس بحرف ولا بصوت ويتعلق بما تعلق به العلم ، وباقيها وهي سبعة تتعلق تعلق ملازمة بالصفات السبع الاخيرة منها ويقال لها الصفات المعنوية وهي كونه تعالى قادراً ومريداً ، عالماً ، حياً ، سميعاً ، بصيراً ، متكلما

---

(١) الاحياء للغزالي وشروح السنوسية في التوحيد

أما الصفات المستحيلة في حقه تعالى فهي العشرون صفة التي تضاد الصفات السالفة من : العدم . والحدوث . والفناء . والمماثلة للحوادث . وعدم القيام بالنفس . والتعدد . أو التركيب . والعجز وعدم الارادة . والجهل . والموت . والعمى . والصمم . والبكم الى آخر ما يقع مضاداً للصفات العشرين الواجب التأدب باعتقادها في الاسلام بحقه تعالى

أما ما يجب اعتقاده بحق الرسل عليهم الصلاة والسلام فالصدق والامانة وتبليغ ما أمروا بتبليغه الى الخلق ، ويستحيل في حقهم اضداد هذه الصفات من الكذب والخيانة بنقل شيء نهوا عنه نهي تحريم أو كراهة أو كتمان شيء مما أمروا بتبليغه الى الخلق وقد نص القرآن في غير موضع منه على تلك الاحوال للرسل وامثالها « وما ينطق عن الهوى » « ولو تقوّل علينا بعض الاقاويل لاخذنا منه باليمين » الى اشباه ذلك من الآيات .

ويلحق بذلك تصديق ما اخبروا به من احوال الآخرة من الحشر والنشر والجنة والنار الى آخر ما تراه مبسوطاً في كتب العقائد الموضوعة للكافة والمبرهن عليها عقليا ونقليا وقد تقدم شيء منها في اول الرسالة

أما الفقه من العبادات والمعاملات الشرعية فلازم أيضا لابناء الهيئة لزوم التوحيد اصولاً للتشريع وفروعا للعمل لان الاسلام إيمان وتصديق بالقلب واللسان ثم عمل بالاركان وحكم هذا الفقه الوجوب العيني في فروعه العملية بقدر ما يعرف المرء به تصحيح عباداته وما في حكمها من معاملاته واحواله الشخصية اللازمة لكل انسان في الهيئة أما ما زاد على هذا القدر أصولا وفروعاً فحكمه الوجوب الكفائي ولعمر الحق ان هذا لهو اسمى ما يطلب لصلاح أحوال الكافة لان تفرغهم ذلك التفرغ العظيم المطلوب لما هم بصدده من الاعمال الحيوية والمهن المعاشية وطلب الارزاق والسعي بهذا كله في عمار العالم موجب كله لهذا قائض به بطبيعة الحال فصار انقطاع الفقهاء والمتشرعين من العلماء لما هم بصدده من الاصول الفقهية والفروع المستنبطة وتسهيل ورودها على الناس في حل مشكلاتهم ومعضلاتهم وتنظيم شؤونهم مهنة لهم لازمة للهيئة الاجتماعية في كل عصورها على حسب مقتضيات احوالها كما صار ما هو فرض عين من الفقه لازماً لكل مكلف لصلاح أمر دينه ودنياه بحسب تلك المقتضيات الزمانية حتى تكون الهيئة الاسلامية على الدوام في

ترق مستمر تبعاً للاحوال والظروف ولهذا على ما يقول الفقهاء والاصوليون اصل كبير في الدين

ولقد مرّ بك جملة صالحة مما هو في حكم الفرض العيني من الفقه في باب ادب العبادات من هذه الرسالة بمقدار ما وسعه نطاقها ولا حاجة بي هنا الى المزيد وهناك من الكتب فيه على اختلاف المذاهب ما لا يقع تحت حصر وان كان ينقصنا منها (كتب عصرية) تناسب روح الزمان في اساليبه واذواقه و (احواله) حتى يسهل ورود الشرع حياً على كل وارد من الكافة من المسلمين المتعطشين لذلك المحتاجين اليه أيما احتياج ولا إخال أحداً من أبناء العصر المهذبين الا وهو يشعر بحاجة الامة الى ذلك ويلوم القائمين بزعامة العلم الشرعي على جمودهم واكتفائهم بالحواشي والتقارير والشروح القديمة التي لا تناسب في تطبيقاتها احوالنا الحاضرة ولقد قال بعض قضاة الجزائر الحاليين ان الشرع الاسلامي غير واقف وانما هو ككل اشياء هذا العالم في ارتقاء مستمر على ان الذي ينقصه انما هو الهمة والنزعة من اهله حتى يجلي عن شأنه ويستوفي حقه في الاخذ بيد الامة في تقدماتها واشياءها الحالية ولا يرمي

بالنقص عن الكمال من جماعة الباحثين الغربيين

أما التفسير تفسير كتاب الله تعالى القرآن المجيد والذكر الحكيم الذي لا يفرغ جديده بالكشف عن معاني آياته وأسرارها الصالحة لكل زمان ومكان لأنها قد استوفت الاصول العامة للشرع والعقائد والآداب الاجتماعية السامية وتأويلها بحسب ما يظهر منها لذوي النهي وأرباب البصائر من الراسخين في العلم والحكمة من ابناء الملة الاسلامية فكله الوجوب الكفائي لأهل العلم الاختصاصيين وبعبارة أخرى لأولئك العلماء المتبحرين في كل فن من اللغة والشريعة والعلوم الطبيعية والفلسفية بحسب مبلغ اطلاعهم في أزمنتهم على الحقائق والوقائع العمرانية والحوادث الكونية [1] ولهذا حذر الشارع الحكيم من تأويل القرآن بالرأي وقال تعالى تنبيهاً على هذا المبدإ (لا يعلم تأويله الا الله والراسخون في العلم) حتى لا تصرف معاني الآيات الى آراء واحوال قد ترى ببداهة العقول ومواقع الآيات وتناسبها واسباب نزولها انها قد صرفت في غير حقها من المعنى الصريح أو التأويل الرجيح كما قد وقع فيه الكثير من

(١) قد حاز قصب السبق في الباب الامام الرازي في تفسيره الكبير

الصوفية وأرباب الاشارات الامر الذى يبدو لمن كل ناقد بصير مطلع على تفسيراتهم وتأويلاتهم

على ان هذا ليس بمانع ان يكون في الآيات القرآنية معان غير ما فهم منها بظاهر التفسير أو معان أخرى تناسبها منه وقصدها الله تعالى حتى تتساوى الصور في الاخذ والاستنباط من القرآن حكمة من الله تعالى وفضلاً والقرآن كما قيل ( هو السهل الممتنع والقديم الذى لا تفرغ جدته ) قال حجة الاسلام الغزالي رحمه الله تعالى [1] ( من زعم ان لا معنى للقرآن الا ما ترجمه ظاهر التفسير فهو مخبر عن نفسه وهو مصيب في الاخبار عن نفسه ولكنه مخطئ في الحكم بورد الخلق كافة الى درجته التي هي حده ومحطه بل الاخبار والآثار تدل على ان في معاني القرآن متسعاً لارباب الفهم . قال على رضى الله تعالى عنه ( إلا ان يؤتي عبداً فهماً في القرآن ) فان لم يكن سوى الترجمة المنقولة فما ذلك الفهم ، وقال صلى الله عليه وسلم (ان للقرآن ظهراً وبطناً ومطلعاً ) [2] وفي هذا كفاية لقوم يعقلون

---

( ١ ) الاحياء للغزالي (٢) راجع أيضاً الاتقان السيوطى ففيه شئ كثير يؤيد ذلك او يخالفه اه

ونحن بأشد الحاجة الى تفاسير تطبق فيها المكتشفات العصرية والحقائق العلمية على الآيات القرآنية ثم تأويل بعض آيات يفهم منها بحسب الظاهر ما يخالف المعهود المألوف تأويلاً يشفي الصدور ويقنع العقول مما هو من مصلحة الامة وشد أزرها وبنيها تبعاً لسنة الارتقاء التي شملت كل العناصر خلا امثال هذا الباب على نحو ما اشرت اليه بالنظر الى الفقه وحاجة الامة الى كتب عصرية فيه مما هو من أشد موجبات الاسف ولو كان فضح الله تعالى في اجل الامام المرحوم الشيخ محمد عبده لاتم تفسيره العصري ذلك الذي لم يظهر منه غير قطع ونتف قليلة وليل بهذا الصنيع صدى الامم الاسلامية في جميع أقطار العالم

أما علم الادب أدب النفوس وتهذيب الاخلاق العملية فهذا ايضاً مما تجب مداومته على انفراد وان كان مندمجاً في الاخلاق الدينية للوقوف على الرذائل لاجتنابها والوقوف على الفضائل للعمل بها . وهو يقسم الى أدب مع النفس وأدب مع الخلق وادب مع الخالق وسيأتي في باب ادب النفس من هذا المختصر جملة صالحة منه بقدر ما يحتمله المقام.

ويدخل فى هذا الباب علم التصوف من مجاهدة النفس وتزكية القلوب والاعراق بطريق الرياضة والتأدب بحضرة الرب تعالي وتصفية الباطن والظاهر من الاكدار فى جميع الشؤون والاطوار كما قال الشاعر ملمحاً

ليس التصوف لبس الصوف ترقعه

ولا بكاؤك ان غنى المغنونا

ان التصوف ان تصفو بلا كدر

وتتبع الشرع والقرآن والدينا

فالتصوف على هذا فرع علم أدب النفوس لهذا طلب قديماً لانه كما قال احد مشايخه الشيخ قاسم الخالي (انه الوقوف مع الآداب الشرعية ظاهرا وباطناً) على ان القوم لما غيروا وبدلوا وتوسعوا وتطرفوا وتشددوا وتعمقوا لهذا كله خرجوا عن المبدأ الصحيح والغاية الحميدة خصوصاً متأخروا المتصوفة فانهم نهجوا نهجاً مخالفاً للشرع وخبطوا خبط عشواء في دياجير البدع والجبر المحض مما جعل الادب والكمال الشرعيين المطلوبين في علمهم هذا في واد وهم باعمالهم وافانينهم في واد آخر غير ذى زرع ولقد جاء في الحديث الشريف هذه الحكمة العالية الكاشفة

(اياكم والتعمق في الدين فان الله جعله سهلاً فخذوا منه ما تطيقون فان الله تعالى يحب ما دام من عمل صالح وان كان يسيراً)

أما العلوم الآلية التي هي وسائل ووسائط لفهم أسرار الدين وهي القرآن وبلاغته وحكمه واحوال النبوة واحاديث سيد الخلق عليه الصلاة والسلام ثم تسهيل فهم العلوم الدينية فقد حدثت بالضرورة بعد عصر النبوة وتطلب العقول والرقي الاسلامي للمتسع من الاحوال والتقدمات العلمية فشاع الخط العربي والقراءة والكتابة تلك الاشياء التي هي ضرورية لكل انسان ووضع علم النحو والصرف واللغة والمعاني والبيان والبديع والعروض والقافية بالنسبة الى الشعر وتشبثت العقول بتعلم الحساب والجبر والهندسة والفلك لضرورتها في احوال الخلق وتصرفهم في الشؤون العمرانية الحسية والمعنوية والطب ذلك الفن الذي عليه مدار حفظ صحة ابدان افراد الهيئة ومداواتها من الامراض الطارئة والاسقام اللاحقة ثم العلوم الطبيعية لمعرفة اسرار مواليدها والتاريخ وتخطيط البلدان وتدوين الاخبار والآداب وقول الشعر وفن الموسيقي (١)

---

(١) مقدمة ابن خلدون وغيرها

فهذه منها ما هو واجب تعلم مبادئه على كل انسان ومنها ما يخلق بان يدخل في حكم الفرض الكفائي والكمال العمراني فيختص به ارباب الفن الاختصاصيون حتى تنتظم أحوال العمران البشري وللسلف من اهل الاسلام في كل منها آثار جليلة ومآثر غراء واياد بيضاء بقدر ما وسعه عالمهم واقتضاه تفهم ومصلحتهم من معقول العلوم ومنقولها

والذي يلزمنا نحن ان نتأدب به معاشر اهل الاسلام العصريين في هذا العصر من جهة اكتساب العلوم وتحصيل المعارف اللازمة لرقينا ورقي هيئاتنا هو ان نتحرى بسوادنا الاعظم الاحاطة بالمبادئ الدينية التي هي فرض عين ثم ان نتعلم مبادئ العلوم الآلية الضرورية من الخط ومبادئ اللسان والحساب وشيء من دروس الاشياء وادب النفس حتى يدخل احدنا غمار هذه الحياة وهو على شيء ويزاول فنه الخصوصي وهو على جانب من المعرفة والعلم الضروري والعلم كما قال الشاعر :

العلم يحيي نفوساً قط ما عرفت ... من قبل ما الفرق بين الصدق والمين

العلم للنفس نور يستدل به ... على الحقائق مثل النور للعين